الأندلس والحملات الصليبية
من القرن الخامس إلى السابع الهجري
الحادي عشر إلى الثالث عشر الميلادي

الباحث/ أنور محمد كليب قحمي

ظهر رفض النصارى وعدم الرضى بهذا الدين، وذهبوا لأبعد من ذلك، بأن حاولوا جعل المسلمين يتّبعون دينهم، فكان الصراع بين المسلمين والنصارى يتّسع شيئاً فشيئاً، حتى كانت القرون الثلاثة من الخامس إلى السابع الهجري /الحادي عشر إلى الثالث عشر الميلادي تمثّل ذروة ذلك الصراع، فيما عُرف في التاريخ بالحروب الصليبية، وكانت الأندلس إحدى ميادين ذلك الصراع في تلك القرون وما تلاها .

أسباب اختيار الموضوع : وقد بدت الحاجة كبيرة إلى الكشف عن تلك الأحداث، وما يدور ورائها، فنالت الحروب الصليبية على المشرق اهتماماً كبيراً من الباحثين، أمّا الأندلس وعلاقتها بالحروب الصليبية فقد ظل نصيبها من هذه الدراسات محدوداً، وعلى الرغم من أهميتها البالغة كونها جزءاً من دار الإسلام وأسهمت بنصيب كبير في الحضارة الإسلامية، كونها تشغل مساحة كبيرة من القارة الأوروبية التي كان معظم سكانها قد تحوّلوا إلى النصرانية في الوقت الذي بدأ الإسلام فيه بالانتشار والدخول إليها عبر الأندلس، فتصدت له أوروبا بكل ما تستطيع وعُقدت التحالفات بين البابوية والأباطرة ، وكذلك التحالفات بين ملوك النصارى في الأندلس لِلَم شملهم من أجل مواجهة المسلمين وردهم عن أوروبا، وبالفعل توقف تقدم الإسلام في القارة الأوربية بعد معركة بلاط الشهداء (بواتييه) سنة114هـ/732م، وبدأ النصارى مبكراً بإخراج المسلمين من المناطق التي سيطروا عليها في فرنسا، ومن ثم إسبانيا، وازداد اقتطاع الدولة النصرانية للأراضي الاسلامية بمرور الزمن حتى كان الوقت الذي حدث فيه التنازع بين المسلمين _ بداية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي _ فكان ذلك فاتحاً لشهية النصارى في الأندلس للقيام بحملات متوالية من أجل إخراج المسلمين من الأندلس، وتزامن ذلك مع تنامي الروح الصليبية لقتال المسلمين في مناطق مختلفة من دار الإسلام، فابتدأت الحملات بالأندلس، وتحركت حملات أكبر منها إلى الشرق بذريعة حماية القبر المقدّس في فلسطين، واستهدفت الحملات مناطق عدة من دار الإسلام، وكانت الأندلس من المناطق المهمة التي تحتاج إلى الكثير من الدراسات في هذا الموضوع، لما لها من موقع هام في القارة الأوربية، وما أسهمت به من انتقالٍ لقدرٍ كبير من الحضارة الإسلامية إلى أوروبا، وكذلك دراسة كيف كانت الأوضاع في الأندلس عندما اتجهت إليها الحملات الصليبية ؟ وكيف كانت تتشكل تلك الحملات؟ وماذا نتج عن تلك الحملات؟ وكيف تأثرت الأندلس بالحملات التي كانت تتجه إلى الشرق؟ وهل لنصارى الأندلس إسهام فيها؟ ، كل تلك التساؤلات، وغيرها، رغّبت في محاولة تناول هذا الموضوع بدراسة نواحٍ متعددة بشكل أكثر تفصيلاً، ولعل هذه الدراسة تسهم في الإجابة عن هذه التساؤلات .

الدراسات السابقة : أمّا الدراسات السابقة لهذا الموضوع فمنها: دراسات في تاريخ الحروب الصليبية في الأندلس للدكتور محمد النشار، وقد تناول في هذه الدراسة الحملات الصليبية

على الأندلس في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، كما تناول نشأة بعض الفرق الدينية العسكرية في الأندلس في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي .

ومن الدراسات أيضا التي عنيت بهذا الموضوع ما أفرده الدكتور سهيل زكار في موسوعته الشاملة للحروب الصليبية في الجزء الثاني منها، عن الحروب الصليبية على الأندلس مبتدأً بالطابع الصليبي للمعارك بين المسلمين والنصارى منذُ افتتاح الأندلس وحتى معركة الزلاّقة سنة479هـ/1086م، التي انتصر فيها المسلمون على الصليبيين، ولم يتناول الحروب الصليبية على الأندلس بعد معركة الزلاّقة .

أمّا هذه الدراسة فتناولت الحملات الصليبية التي اتجهت نحو الأندلس منذ بداية القرن الخامس الهجري / السادس عشر الميلادي، وتتبعت تلك الحملات حتى الثلث الأخير من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، كما تناولت هذه الدراسة البدايات الأولى لتكوّن الروح الصليبية ضد المسلمين في الأندلس وأسبابها، كما تناولت التحركات الصليبية لملوك النصارى الإسبان مفصِّلةً دور أبرز أولئك الملوك حسب الحملات التي قادوها ضد المسلمين في الأندلس، وأوضحت الدور الشعبي في تلك الحملات خلال تلك القرون الثلاثة_ الخامس إلى السابع الهجري/الحادي عشر إلى الثالث عشر الميلادي _ وبيّنت هذه الدراسة مواقف أبرز الباباوات الذين باركوا ودَعَوْا ودعموا الحملات على الأندلس في القرون الثلاثة التي عنت بها الدراسة، وتطرقت هذه الدراسة إلى أثر الحملات الصليبية إلى الشرق على الأندلس ومساهمة الإسبان فيها.

الصعوبات : أمّا أهم الصعوبات التي واجهت الباحث فكانت تتمثل بعدم توفر المصادر التي تتناول تاريخ الباباوات بشكل خاص، ولذلك تم الاعتماد في هذه الناحية على الموسوعة العربية المسيحية والتي ترجمها شحادة ميلاد أبو خليل المتاحة على شبكة الإنترنت، وإن كانت بعض المصادر والمراجع تتحدث عن مواقف الباباوات من الحروب الصليبية على الأندلس إلاّ أنّها لم تكن بالشكل الذي يفي بغرض البحث، كما أنّ وجود معلومات تتعلق بالطابع الصليبي في الحملات على الأندلس كان أكثر ما يوجد في مصادر إسبانية أو إيطالية أو فرنسية أو إنجليزية غير معرّبة، مما زاد في تلك الصعوبات، وكانت الترجمة لتلك المصادر تتم عن طريق الإنترنت، ويزيد الأمر صعوبة ظهور الترجمة بشكل ركيك غير ملبّي للصياغة الصحيحة للمعلومة، فتم التغلّب على هذه المشكلة بالأخذ من المراجع العربية التي أخذت عن هذه المصادر .

المنهج المتبع في الدراسة : أمّا المنهج المتّبع في هذه الدراسة فهو المنهج التاريخي، والذي من خلاله تم الرجوع إلى سلسلة الوقائع التي حدثت، ومحاولة فرزها حسب الخطة المتّبعة للدراسة، ووضع كل حدث تاريخي ضمن الفصل المعني به مع التحليل والتعليل والنقد .

تقسيم الدراسة : تتكون هذه الدراسة من مقدمة، وتمهيد، وفصول أربعة، وخاتمة، وملاحق، وقائمة المصادر والمراجع، والفهارس .

المقدمة ثم التمهيد وفيه تم تناول وضع الأندلس عند بداية الحملات الصليبية، وإلقاء نظرة على خارطة الأندلس وتقسيمها إلى ستة مناطق رئيسية، وذكر ما يندرج تحت هذه المناطق من مدن مهمة، وتوضيح من كان يحكم هذه المناطق من ملوك الطوائف .

الفصل الأول :- جذور الحملات الصليبية في الأندلس، أُلقي الضوء في هذا الفصل على البدايات الأولى لتكوّن البغض الصليبي على المسلمين في الأندلس، وإذكاء البابوية للروح الصليبية ضد المسلمين في الأندلس ودعمها لملوك النصارى في حروبهم ضد المسلمين، وبيّن كلاً من الجذور الدينية والسياسية والشعبية، وفيها تم الوقوف على المكانة الدينية للأندلس عند النصارى، وسبب تلك المكانة، والأسلوب الذي اتبعه ملوك اسبانيا النصرانية في أولى تحركاتهم الصليبية .

الفصل الثاني:- دعم نصارى الأندلس للحملات الصليبية، تطرق هذا الفصل إلى شقين أساسيين: الشق الأول التحرك الرسمي لملوك إسبانيا النصرانية، وفيه تم ذكر ما قام به ملوك إسبانيا من حملات صليبية، واجتياح للأراضي الإسلامية في الأندلس بمباركة البابوية، والمعاهدات ما بين ملوك قشتالة وأراجون، وخططهم في اقتسام أراضي الأندلس الإسلامية، وتحالف هؤلاء الملوك مع النصارى المعاهدين داخل الأراضي الإسلامية، وتحالفهم أيضاً مع بعض أمراء المسلمين ضعاف النفوس في التحركات الصليبية ضد القواعد الإسلامية المهمة في الأندلس ، أمّا الشق الثاني فيركز على الدور الشعبي لنصارى الأندلس في الحملات الصليبية، واعتبار بعض القادة الذين يعملون لحسابهم الخاص من ضمن التحركات الشعبية، كما نوّه إلى الدور الشعبي المباشر لنصارى الأندلس المعاهدين في الحملات الصليبية .

الفصل الثالث:- موقف البابوية من الحروب الصليبية في الأندلس، وقف هذا الفصل على ما قام به أبرز الباباوات من دعوات ومباركات ودعم للحروب الصليبية، وإصدار مراسيم تدعم ملوك النصارى في تحركاتهم، وتمنح كل من لبّى الدعوة للمشاركة في القتال ضد المسلمين في الأندلس الغفران التام.

الفصل الرابع :- العلاقة بين الحملات الصليبية في المشرق والأندلس، أوضح دور الإسبان في الحملات الصليبية المتجهة إلى المشرق سواءً كان الدور رسمي متمثل في دور بعض ملوك إسبانيا، أو الدور الشعبي، وكيف تأثرت الأندلس بالحملات التي كانت تتجه نحو الشرق مروراً بالأندلس، وكيف ساعدت نصارى الأندلس في حملاتهم الصليبية ضد المسلمين .

كذلك بحث هذا الفصل في كيفية نشأة الجماعات العسكرية الدينية في الأندلس وارتباطها بالفروع التي في الشرق، وتوضيح ما كان منها إسبانياً خالصاً، نشأ خصيصاً لقتال المسلمين في الأندلس، وذكر الباباوات الذين أصبغوا على هذه الجماعات الصفة الرسمية، وربطها بالبابوية

الخاتمة :- تتضمن أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة .

الملاحق، قائمة المصادر والمراجع، الفهارس

أهم النتائج المستخلصة في خاتمة هذه الدراسة فهي :

1- إنّ موقع الأندلس في القارة الأوربية كان عاملاً من العوامل المهمة التي أدّت إلى أن يكون هدفاً لأولى المحاولات والحملات الصليبية .

2- مثّل الصراع بين المسلمين في الأندلس فرصة سانحة للنصارى للوثوب عليهم والقيام بحروب صليبية ضدهم .

3- على الرغم من أنّ الصليبيين اغتنموا فرصة تمزق المسلمين فوثبوا عليهم، إلاّ أنّهم لم يقفوا عند هذا الحد، فحتى الوقت الذي كان المسلمون فيه في الأندلس تحت قوة موحدة ودولة قوية كما كان أيام المرابطين والموحّدين إلا أنّ ذلك لم يمنع النصارى من الاستمرار بالحشد الصليبي من كافة انحاء أوروبا لقتال المسلمين .

4- إنّ الصليبيين كانوا يعملوا لهدف محدد وهو إخراج المسلمين من الأندلس مهما كانت حالة الضعف أو القوة عند المسلمين .

5- إنّ احتواء الأندلس على قبر الحواري يعقوب _ سنت يعقوب _ قد وهبها مكانة عالية بحيث أصبحت تمثل قوة روحية لدى النصارى عموماً، وليس لنصارى الأندلس فقط، ومن ذلك عمّت قداسة سنت يعقوب كل الأندلس، فكانت حماية الحجاج النصارى إلى ذلك المكان ذريعة لقدوم تلك الحملات الصليبية وإبقاء الأندلس نصرانية خالصة من دون المسلمين .

6- اختلطت الأطماع السياسية لبعض ملوك إسبانيا النصرانية بالدافع الديني الصليبي، مما أدّى إلى أن يكون بعض هؤلاء الملوك أقلّ وطأةً على المسلمين في الأندلس من الصليبيين القادمين من أنحاء أوروبا .

7- استفاد ملوك النصارى في إسبانيا من الدعم البابوي لهم على الرغم من أنّ البابوية حاولت أن تفرض سلطتها عليهم، إلاّ أنّ دعمها لهم، وتوسع هؤلاء الملوك على حساب المسلمين شكّل تعويضاً لهم مما يُدفع للبابوية من مال أو تحجيماً لسلطتهم .

8- تفاوتت حدة الحملات من ملك نصراني إسباني إلى آخر حسب عزيمة كل منهم ومدة حكمه، كما تفاوتت حدة هذه الحملات على الأندلس بحسب حالة المسلمين أيام دول الطوائف، أو المرابطين، ومن بعدهم الموحّدين، فكلما كان المسلمون في آخر طور لإحدى هذه المراحل والدول كانت الفرصة للنصارى أفضل، والتي كانوا غالباً ما يستفيدون منها كثيراً .

9- كانت الأندلس هي الملهمة للباباوات لإعلان الحرب المقدّسة على فلسطين لاستعادة القبر المقدّس .

10- إن مَنْع البابا أوربان الثاني الاسبان من المشاركة في الحملات الصليبية على المشرق كون أنّ ما يقومون به من قتال للمسلمين في بلادهم يكفي، لم يثنهم عن المشاركة في الجموع الأولى التي خرجت باتجاه الشرق .

11- لم تقف مشاركة الإسبان في الحملات على الشرق عند الحملة الصليبية الأولى، بل امتدت إلى ما بعد خروج الصليبيين من آخر معاقلهم في عكا سنة 690هـ/1291م .

12- كانت مساهمة الإسبان شعبية، ورسمية في الحملات الصليبية .

13- تأثرت الأندلس كثيراً بالحملات التي اتجهت نحو الشرق، وسقطت معاقل مهمة للمسلمين بيد الصليبيين الذين ساندوا الإسبان في الاستيلاء على تلك المعاقل المهمة .

14- إنّ فكرة إنشاء فِرَقْ دينية عسكرية نصرانية في إسبانيا والبرتغال كان مستمداً من الفِرَقْ الدينية التي نشأت في فلسطين .

15- توالت نشأة هذه الفرق في إسبانيا والبرتغال حتى بعد نهاية الحروب الصليبية في المشرق، في القرن السابع الهجري /الثالث عشر الميلادي .

16- ظلت الحروب الصليبية في الأندلس تتمازج مع الدافع السياسي حتى تم القضاء على البقية الباقية من المسلمين في الأندلس، في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي .

17- على الرغم من ذكر مواقف بعض البابوات في المرحلة التي عُنيت بها الدراسة، إلاّ أنّ ذلك لا يعني اقتصار المواقف الداعمة لهذه الحروب الصليبية على أولئك الباباوات، إنّما هذا ما تمّ الوصول إليه، ويستلزم الأمر مزيداً من البحث في مواقف باباوات أُخَرْ كان لهم على الأرجح دوراً في الحروب الصليبية على الأندلس .

18- كانت الأندلس نموذجاً مصغّراً لما يحدث في البلاد الإسلامية كلها في وقت ٍواحد، فقد تجاذبت الحروب الصليبية العديد من المناطق في العالم الإسلامي، بتطابق الكثير من الصور مما يحدث في الأندلس .

هذه أهم النتائج التي تم استنتاجها من البحث، ولا شك أنّ هناك نتائج أخرى سيلمسها القارئ من خلال مطالعته لهذه الرسالة، التي أسأل الله أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم، وهذا ما سمح به الوقت والجهد، ولعلّ من يأتي أن يقوم بما هو أشمل وأكمل، والكمال لله وحده، والحمد لله رب العالمين .

قام الباحث بمناقشة رسالته في يوم الاثنين 7ربيع أول 1436هـ الموافق 29 ديسمبر 2014م، وكانت لجنة المناقشة والحكم مكونة من:

1- أ. د عبدالرحمن عبدالواحد الشجاع مشرفًا ورئيسًا

2- أ. د محمد أحمد محمد الكامل عضوًا مناقشًا

3- أ. د علي محمد فريد مفتاح العولقي عضوًا مناقشاً

وحصل الباحث بعد مناقشة مستفيضة على درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي بتقدير ممتاز بمعدل 92% .

ISSN:2710-1312 (Online) ISSN:2710-1304 (Print)http://al-adab-journal.com